المبحث الأول

الاغتراب العاطفي

إنَّ طبيعة التجربة العاطفية (الحب العذري) التي ينبثق المخاض الإبداعي من خلالها، تنم عن نوعين من الصراع: يتمثل الأول في الصراع الداخلي القائم بين الجسد والروح، والذي يتحول في نفس العاشق، ربما بمؤثرات اجتماعية أو اقتصادية أو حتى شخصية إلى رغبة مكبوتة تتعالى وتتنامى به إلى ما فوق مستوى الغرائز المتمثلة في رغبات الجسد(١)، لذلك قيل: إنَّ الغزل العذري ظاهرة إسلامية نشأ بدافع التقوى(٢).

وقد تنوء القصيدة العذرية عن نوع آخر من الصراع، لكنه صراع خارجي، يقوم بين الشاعر ومجتمعه، حين يسعى المجتمع بعاداته وتقاليده وأعرافه إلى اصطناع القيود والحواجز التي من شأنها تفريق الأحبة وتشتيت شملهم، وقتل حلم اللقاء داخل نفوسهم، مما يؤدي إلى تأجج الصراع الداخلي في نفس العاشق، فيحاول أفراغه من خلال تسليط الضوء على بعض مثالب الناس في سعيهم إلى إسقاط براءة تلك العلاقات في مهاوي الضياع واليأس.

لذلك نجد في هذين المحورين أرضية صالحة، ومناخاً مناسباً لنمو الاغتراب داخل نفس الشاعر العاشق، والذي قد يؤدي به إلى الانفصال عن الذات أو الآخر المتمثل في الشخص أو الجماعة والوطن، وربما العالم كله، ذلك أنَّ الاغتراب على وفق التحليل النفسي، حالة من حالات الصراع النفسي التي ربما تؤدي إلى فقدان الهوية، أو حتى الشعور بالاختلال(٣)، إذ أنَّ دوافع الاغتراب الذاتية والموضوعية قد تعمل بصورة متداخلة عندما تَرُدُّ الأسباب الذاتية إلى عوامل نفسية، والأسباب الموضوعية إلى العوامل الاجتماعية التي ذكرناها.

---

(١) ينظر: اتجاهات الغز ل في القرن الثاني الهجري،د. يوسف حسن بكار، ص٢٤.
(٢) ينظر: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل ص٢٨٤.
(٣) ينظر: الاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات، آمال محمد بشير، (أطروحة دكتوراه) ص١٥٩.

لذلك فإنَّ واقع ظاهرة الاغتراب يكمن في أنَّها خطوة إلى بيان اختلال علاقة الذات الإنسانية بواقعها على عكس ما يجب أن يكون من تكيف وانسجام.

فصورة الحب العذري تتمثل في أنَّه حب روحي أخذ يشكل مأساة حزينة تتمخض بدايتها عن أمل يُنمِّي عاطفة الإنسان ويؤججها، لكنها قد تسير بطريق غير معبد، لا يخلو من المتاهات والعثرات، لتكون نهايتها يأسا وطعنا لذلك الأمل المتولِّد، لتعلو نظرة الظلام على بصيرة العاشق، بعدما رأى ذلك النور الذي ملأ عينيه، حين يتميز ذلك الحب بالعفة والإخلاص، لكن الحرمان لا ينفك يتبعه أبداً، فالاغتراب العاطفي إذن يُولد نتيجة الحب المقرون بالفشل واللوعة والحرمان تبعاً للظروف المحيطة وطبيعة التكوين النفسي والاجتماعي للشاعر إذ تبدو التجارب الذاتية ذات أثر في توجيه تفاصيل التعامل مع إفرازات واقعه النفسي المتأزم، فالشعر العربي ما هو إلاَّ انعكاس لطبيعة التفاعل الروحي بين الشاعر ومجتمعه حين تتشابك الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتشكل ذلك التفاعل، فالشعر لا يعدو أن يكون صياغة فنية لتجربة شعرية مميزة، تحاول أن تنقل لنا الواقع، ولكن بمنظار آخر، فالغريب من لا حبيب له، والذي يرفضه الحبيب أو يفقده أشدَّ اغتراباً لأن (فقد الأحبة غربة)[1].

ولا شك أنَّ حياة الشعراء في القرن السابع الهجري وما رافقها من تعقيدات وتفصيلات وتناقضات مدَّت يد العون في تنمية تجربة الهجر والفراق والبعاد، فتباينت ردود أفعالهم والمتمثلة في رفض الحبيب وصده أو الاستسلام والاتكاء على النحيب والبكاء، وذم الواشي، وغيرها من محاولات ردة الفعل النفسية.

على أننا نتصدَّى في هذا المبحث لدراسة الاغتراب العاطفي، يجدر بنا أن لا نفترض معياراً مسبقاً، أو مصطلحاً جاهزاً، وإنما نحاول أن نستجلي ملامح تلك المقاطع التي عمد الشاعر خلالها إلى نثر ما يختزن في ذاته من حب وألم وأسى وشكوى، ولكي تقع تلك الحقائق في إطار رصين كان لابد من محاولة توزيعها ضمن محاور تفصيلية محددة تقررها طبيعة الدراسة وحصيلة الحقائق التي ينتهي إليها الاستقراء وأول هذه المحاور:

الشوق:

(١) حلية الأولياء، أحمد بن عبد الله أبو نعيم الاصفهاني، ١٣٤/٣.

ويعد الشوق من أولى الصفات التي يعبر بها الشاعر عن لوعته وما يكابده من ألم الفراق، إذ غدا الشعراء يصورون لوعتهم وحنينهم لأحبابهم بوسائل عديدة، فيرى علماء النفس أنَّ من مظاهر الاغتراب العاطفي أن يساير الشاعرَ شعورٌ بالألم والحزن واليأس، وأحياناً الإحساس بالعجز أو العزلة الاجتماعية، وقد يسايره شعور بالقلق والاغتراب(١)، ونظراً لميزة الطبيعة العاطفية للرجل، فإنه يلجأ للتعبير عن حزنه وألَمه ولوعته بفيض من الكلام الحزين، على خلاف المرأة التي تنفِّس عن ذلك بالبكاء والنشيج والدمع الساخن، وذلك لقابليتها على البكاء فضلاً عن ضعفها العاطفي والتي تجعلها تستنفد كل طاقة التعبير المختزنة في قلبها(٢)، لكن ذلك لا يعني أن دموعه عصيَّةٌ على السيل والانسكاب، فالحاجري الذي اكتوى قلبه بنار العشق سكبت عيناه الدمع انسكاباً وهو يتوجَّع حين فارقته صاحبته إلى رامة، محاولاً استعطافها لأن صدره يلتهب حريقاً، إذ يقول:

(السريع)

وَيْلاهُ مِنْ بَرْدِ رُضابٍ لهُ أَشكو إلى العُذَّال مِنْهُ الحريقْ(٣)

وفي لهيب هذا الحريق يتضوع إلى رؤيتها حين رحلت عنه وتركته يشكو الآلام وأوجاع الفراق، فيقول:

(الكامل)

إنَّ الأُولى رحَلُوا غداةَ مُحَجَّرٍ ملأوا القُلُوبَ لواعِجَ الأَحْزانِ
نزلُوا بِرامة قاطنينَ فلا تَسَلْ ما حَلَّ بالأَغْصانِ والغِزْلانِ
فلأَبعثنَّ مع النَّسيمِ إليهمُ شكوى تَميلَ لها غُصُونَ البانِ(٤)

ولأنَّها الوطن فقد قرن حنينه إليها بحنين المغترب عن وطنه، حين تتقد بدواخله جمرات الشوق، فبُعْدِها جعله يشعر بالاغتراب داخل نفسه أو داخل وطنه، إذ يقول:

(الوافر)

---

(١) ينظر: ظاهرة الاغتراب في الشعر الوجداني الحديث في مصر، منى طلبه (رسالة ماجستير) ص١٣.
(٢) ينظر: الغزل في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، ٤٢٥، وينظر:الرثاء في الشعر الجاهلي، بشرى الخطيب، ص١٢٩.
(٣) ديوانه (رسالة) ص٢٩٥.
(٤) م. ن، ص٣٤٤.

أَحِـــنُّ إلـــى لقائِـــكَ كُـــلَّ يـــومٍ كمـــا يَحْنُـــو إلـــى الـــوطنِ الغَريـــبُ[١]

فالحنين لوصل المرأة مشابهاً في جوهره النفسي والعاطفي حنين المغترب لوطنه، وصدق تلك الآصرة الجوهرية تجسيد للمرأة بمكنوناتها النفسية والمعنوية وهيأتها الجسدية كرمز للوطن الحي، فهي ينبوع الحب والحنان والاستقرار الروحي، فمشاعر الغربة تتسع عبر سلوك المرأة وأفعالها وما يُخلِّفه بعدها وقربها من أثر نفسي[٢].

ولشدة شوقه وعمق حسه الاغترابي لبعد الحبيبة عنه يُرسل لها السلام متمنياً أن تخمد جمرة الحب بين جوانحه بقربها باثاً في ثنايا سلامه همسات عتابٍ لمحبٍ أضناه الوجد والهيام[٣].

وتتجدد صبوته لبعد الأحباب حتى يأس من صروف الزمان، ليعلن شكواه على الملأ، وما تحمله من هجر يصعب على الجبال حمله، إذ يقول:

(الطويل)

أَفـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ صـــبوةٌ تتجـــدَّدُ؟ وخِـــلٌّ أُدانيـــه وآخَـــرُ يبعُـــدُ؟
بُليـــتُ بِبَـــيْنٍ لـــيس لـــي منـــه مُنصِـــفُ وصَـــرْفِ زَمـــانٍ لـــيس لـــي فيـــه مُسْـــعِدُ
ولو ذاق رَضْوى بعْضَ ما بي من الجوى تـــأَلَّمَ رَضْـــوى وهـــو صـــخْرٌ وجلمـــدُ[٤]

فقد انسابت مشاعره في ذلك الشوق والأسى المعلن في تساؤلاته بعدما أظناه البعد، وهجر النعاس جفنيه لاكتواء قلبه بنار الجوى، وقد يلمس القارئ صدى إحساسه ومشاعره التي ما فتأت تنساب في تعابيره بين حين وآخر على الرغم من أنَّه لم يتغزَّل بحبيبة معلنة، إذ لم يصرح باسم حبيبة بعينها.

ولرقة طبع ابن الظهير الإربلي وسمو إحساسه، ولهجرته الطويلة عن وطنه، وبعده عن مستوطن الأحباب، نراه يحن حنين الحبيب المفارق باثاً شوقه وشكواه من هجر

(١) م. ن، ص١٤٦.
(٢) ينظر: الغربة والحنين في شعر القرنين السابع والثامن (أطروحة) ص٢٣-٢٤.
(٣) ينظر: ديوانه ص٢٥٦، ١٧٩.
(٤) ديوانه، ١٧٢، رضوى: جبل قرب المدينة.

الحبيب، عاجزاً عن كف دمعه المنهمل، إذ يقول:

(الطويل)

أُواصـــل فيـــه لـــوْعَتي وهْـــوَ هـــاجِرُ وَيُؤْنِسُـــنِي تـــذكارُه وهـــو نـــافِرُ
ويُغْـــرِي هـــوَاه نـــاظريَّ بـــأَدْمُعٍ يُوَرِّدُهَـــا وَرْدٌ بخَدَّيـــهِ نَاضِـــرُ

إذا كـان صـبري فـي الصَّـبابةِ خـاذلاً فمـا لـي سـوى دَمْعِـي علـى الشَّـوْقِ ناصِـرُ
علـى أنَّ فـيضَ الـدَّمْعِ لـم يَـرْوِ غُلَّـةً مـن الوجْـدِ أَذْكتْهـا العيـونُ الفـواترُ[1]

ولشدة صبابته وشجونه نجد الصبرَ يفارق قلبه، فبات يؤرِّقه الحبيب بوصاله، فكيف إذا كان هجراً، إذ يقول: (البسيط)

كُلِّـــي بكُلِّـــك مَفْتُـــونٌ ومَشْـــغُولُ ولـيس لـي غيـرُ وجـدي فيـك مـأْمُولُ
مَـنْ كـان بـالهجْرِ مقتـولاً وروعتـه فـــإنَّني بلذيـــذِ الوصـــلِ مقْتُـــولُ
قلبـي مـن الصَّـبرِ خـالٍ مُـذْ حللْـتَ بـه وبالصـــبابةِ والأشـــجانِ مـــأهولُ[2]

ولا شك أنَّ المتلقي لشعره، يشعر بتلك الأَنَّات والآهات التي باتت تُحرِّق قلبه،كما لابد له من أن يشعر باغتراب نفسه وشجوها فكل شيء فيه ذكرى الحبيب، فالغروب يشجيه، وإن صدحت أيكة بقربه هيَّجت تباريح الهوى في قلبه، فإذا به ينوح ويتوسَّل الحبيب وصله وقربه، محاولاً أن يأسر قلبه، ويرققه بذكر العهد والمواثيق، علَّه يحن ويشتاق، فيقول: (الطويل)

(١) ديوانه ص١٤٦.
(٢) ديوانه، ص٢٠٥-٢٠٦، وينظر: ص١٥٨.

إذا حَـانَ مـن شـمسِ النهـارِ غُـروبُ   تَـــذكَّرَ مُشْـــتاقٌ وحـــنَّ غريـــبُ
وإنْ صـــدحت أَيكيَّـــةٌ صـــدعت حشـــا   بهـــا مـــن تبـــاريحِ الغـــرامِ نَـــدُوبُ
أَأَحْبابَنـــا والـــدارُ مـــنكمْ قريبـــةٌ   هَـلِ الوصـلُ يومـاً إن دعـوتُ مُجيـبُ؟
وهَـــلْ عنـــدكمْ حِفْـــظٌ لِعَهْـــدِ مُتَـــيَّمٍ   حَليفـــاهُ مـــنكم لوعتـــةٌ ونحيـــبُ؟
يَحِـــنُّ إلـــيكم والخطـــوبُ تَنُوشُـــه   ويشْـــتاقكمْ والنائبـــاتُ تنـــوبُ(١)

وعندما تشتد هموم الاغتراب في نفسه، ويشعر باليأس حينما أظناه الوجد، يروِّح عن نفسه باستذكار ما أَسرَّه من الحبيب ووصله فيما مضى فتتقد بداخله ومضات الأماني والأمل، بعودة تلك الأوقات معللاً نفسه بالتمني الذي ربما يبحث فيه عمَّا يريح نفسه ويحدَّ من شجوها واغترابها، وإن أدركت نفسه في قرارتها، ما ذلك التمني إلاَّ أمل ضائع يطمع بإدراكه، وإن كان ذلك الإدراك حلماً، لذلك ففي لحظات التَّوقد العاطفي يسعى لمعاتبة الحبيب، لأنَّه ما عاد يحتمل أسى نار حبه وإعراضه، فيعلن تمسكه بذاك الحب وذلك الحبيب حين بات عذابه يَعْذَبُ بتجنيه، إذ يقول: (الطويل)

فـــؤادٌ عَلـــى مَـــرِّ الليـــالي يُعَـــذَّبُ   وقلْـــبٌ علـــى نـــارِ الأســـى يتقلَّـــبُ
وأَنـــتَ لِحَيْنـــي مُعْـــرِضٌ مُتَجَنَّـــبُ   بنفْســـي وأَهْلِـــي المُعْـــرِضُ المُتَجنِّـــبُ
مُـــرِ الوجْـــدَ يفعـــلْ مـــا يشـــاءُ بمُهْجَتِـــي   فـــإنَّ عـــذابي فـــي تجنيـــكَ يَعْـــذُبُ(٢)

ونلمس صدى الأسى في نفس ابن المستوفي الإربلي، حين غدا الاغتراب يقلق نفسه، ويعذِّبه الخوف والحذر، بعدما أمسى الكرى والدمع أنيسي عينيه، وبات كالمقتول بالسيف لا يلهيه أُنْسٌ ولا سمرُ، إذ يقول:

(البسيط)

---

(١) م. ن، ص٧١، تنوشه: أي تتناوله فتنال منه.
(٢) ديوانه ص٧٣.

أَبِيْتُ والشَّوقُ يَطْوِيني وَيَنْشُرُنِي ... وعندَيَ القاتلانِ: الخَوْفُ والحَذَرُ
إذا الكرَى اعْتَالَ عيني أَن يلمَّ بها ... أَلْوى بها المُؤلمَانِ: الدَّمْعُ والسَّهَرُ
أَو خاضَ قَوْمي لَيْلاً في حَدِيثِهِمُ ... لم يُغنني المُلهيانِ: الأُنْسُ والسَّمَرُ
وبي أَغَنِّ بديعُ الحُسْنِ يُقْلقُني ... مِنْ طرْفِه السَّاحِران: الغَنْجُ والحَوَرُ
وسْنَانُ يَفْعَلُ في العُشَّاقِ ناظِرُهُ ... ما تفْعَلُ الماضيانِ: السَّيفُ والقدَرُ[1]

وقد يتعامل كل شاعر مع شوقه وحزنه واغترابه تبعاً لنفسيته وشدة آلامه، لكن العذاب وطول الليل وجفاء النوم، شعور يوحِّدهم، وذلك ما نجده عند ابن زيلاق الموصلي (-٦٦٠هـ) حين شبَّه حزنه لفراق أحبته بحزن يعقوب على يوسف، إذ يقول:

(البسيط)

إني لأَقضي نَهاري بَعدكُمْ أَسفاً ... وطُولَ ليلي في حُزنٍ وتعذيبِ
جفنٌ قريحٌ وقلبٌ حشوه حَرقُ ... فمن رأى يوسفاً في حزن يعقوب[2]

ونلمح في لسان العاطفة انعكاسا للنفس الإنسانية وانفعالاتها المضطربة القلقة الهائمة، ولاسيما حين يخاطب الشاعر تلك النفس في حوار يكشف في ثناياه عن حيرته وقد باعده الحبيب، لكنه أقلق مُهجته حين سكنها، وذلك ما دعاه إلى أطلاق صيحات الاغتراب، إذ غدونا نشم فيها رائحة العاشق الحائر المضطرب وهو يبحث عن ملجأ يلوذ إليه ليطفئ النار التي علقت في أحشائه، وذلك ما نستشعره في قول ابن دانيال:

(الطويل)

---

(١) ديوانه ص١٧٥، (م. الذخائر) .

(٢) ديوانه ص٩٣، وينظر: ص٩١، ١٠٣، ١١٢، ١١٥، وهو أبو المحاسن محيي الدين يوسف بن يوسف بن إبراهيم بن الحسن الهاشمي العباسي المعروف بابن زيلاق، ولد سنة (٦٠٣ هـ) ، كان حسن العشرة، كريم= النفس، وكان كاتب الإنشاء لحاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ، قتله التتار سنة (٦٦٠ هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢٧-٣١.

عجبتُ وشأن الحبِّ غير عجيبِ ... إذا ماتَ بالأَشواقِ كلُّ غريبِ
تباعدتِ الأَجسامُ منا وإنَّنا ... لنا جامعٌ مِنْ رَويةٍ وقلوبِ
لنا في كل يومٍ مَنزلٌ تُربةُ النَّوى ... وقُرب خليلٍ وَهْوَ غيرُ قريبِ
أُفارقُ خلاً بعد خلٍّ كأَنَّني ... أُفارقُ نجلي أَو أَخي وَنَسيبي
كأَني من كلِّ البلادِ فَمَدْمَعي ... على كلِّ بادٍ أَو فراق حبيبِ
على أَنَّني لولا اغترابي لم أَطبْ ... وما عاقلٌ في بَلدةٍ بغريبِ(١)

وتتوزع نفس ابن الحلاويّ الموصلي (-٦٥٦هـ) بين التوتر والشوق حين تستبدُّ به الصبابة، وتؤرق هدوءه، إذ يقول: (الطويل)

فما بالُ قلبي كلُّ حُبٍّ يَهيجهُ؟ ... وحتَّام طرْفي كلُّ حُسنٍ يروقه؟
فهذا اليوم البَينُ لم تُطْفَ نارُه ... وهذا البُعْدُ الدَّارُ ما جفَّ مُوقه
ولله قلبي، ما أَشدَّ عفافه ... وإن كان طرفي مُستمرّاً فُسوقه
أَرى النَّاسَ أَضحَوا جاهليَّةَ وُدِّهِ ... فما بالُهُ عن كلِّ صَبٍّ يَعوقه؟(٢)

أمَّا أبو اليمن البغدادي (-٦١٣هـ) فقد أضحى يؤنس نفسه، حين ألقى همَّه على الزمان الذي نال منه بسهام غدره، فألقاه طريحاً، وإن كان حياً، لكن لا يجد ذائقة في حياته، إذ غدت ليلاً لا يتنفس صباحه، بعدما جافاه الحبيب، فيقول:
(الطويل)

(١) المختار، ص٢٥٦-٢٥٧، وينظر: ص٥٥، ٢٦٨.
(٢) ابن الحلاوي الموصلي حياته وشعره، مجلة التربية والعلم، ص٣٩، وهو شرف الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الوفاء المعروف بابن الحلاوي ولد سنة (٦٠٣هـ) ، مدح الأيوبين بدمشق وحلب، ثم خدم عند بدر الدين لؤلؤ مادحاً له في الموصل، توفي سنة (٦٥٦هـ) ، ينظر: م. ن، ص٧-١٤، الموق: مجرى الدمع في العين، ود ويعوق: من الأصنام في عصر ما قبل الإسلام.

نَهاري في عُمر النَّوى كُلّه جُنحٌ ... كما أَنَّ لَيلي مذ نأوا ماله صُبحُ
إذا أنا لم أنظر إلى مَنْ أُحبُّهُ ... فَكلُّ ذرور في جفوني لها قرحُ
رماني زماني مِنْ كنانةِ غدره ... بسهم له في كُلِّ جارحةٍ جرحُ
سقاني من الآفاتِ كأساً رويَّةً ... إذا لم أَمُتْ منها وعشتُ فما أَصحو[1]

وقد يرتبط شوق الشاعر لمدينته بشوق الحبيبة حين أَضناه البعد وأتعبه السهر[2]، ولم يجد التلعفري سبيلاً سوى أن يستذكر لحظات اللقاء والصفاء، حين ألمَّ به غدر الحبيب، إذ يقول:

(الخفيف)

أَيُّ دمعٍ من الجفونِ أَساله ... مذ أَتتْهُ مع النسيم رساله
سَلْ عقيقَ الحِمى وقُلْ إذ تراهُ ... خالياً من ظبائه المختاله
أينَ تلكَ المراشف العسليا ... ت وتلك المعاطفُ العساله
وليالٍ قَضيْتُها كلآلٍ ... بغزالٍ تغار منه الغزاله[3]

ويشعرُ بذاته حين يطوِّعُها في مواقف الضعف، ويَعزِّيها بالصبر والأمل، وإن شكا أحياناً قلَّة صبره في هواه إذ يقول:

(الرمل)

غير صبري في هواه هيِّنٌ ... فملامي فيه ظلْمٌ بيِّنُ[4]

إلاَّ أنَّه وفي لحظات الفتور والهدوء النفسي يدعو نفسه إلى التجمل بالصبر، فيقول:

(مجزوء الكامل)

(١) أبو اليمن تاج الدين حياته وما تبقى من شعره، ص٦٠.
(٢) ينظر: قلائد الجمان، مج١، ج١، ص٤٣٣-٤٣٥.
(٣) ديوانه ص٣٤.
(٤) م. ن، ص٤٣، وينظر: ص٤٧.

لا تجْـــــــزَعنَّ ولا تخـــــــف ودعْ التَّفكُّــــــــــر والأســـــــــف
اللهُ عوَّضـــــــــــكَ الجميــــــــــــــلَ فَقَـــسْ علـــى مـــا قـــد ســـلف[1]

ويلجأ الشاعر أحياناً إلى توجيه الخطاب للحبيبة، علَّه ينال منها ما تصبو نفسه إليه، ليُضعف حدَّة توتره النفسي، وقد يُضفي الحوار بعداً ثانياً على غربة الشاعر، حين يعتمده مسلكاً نفسياً ومنطلقاً فكرياً، يحاول أن يفرغ فيه كل أوجاعه وأحزانه محمِّلاً إياه شكواه من هجر الحبيب، كقول ابن الدبيثي:

(البسيط)

يــا خــاليَ القلْــبَ قلبــيْ حَشْــوُهُ حُــرَقٌ وهَــاجِعَ اللَّيْــلِ لَيْلــيْ لَسْــتُ أَهْجَعُــهُ
إنْ خُنْــتَ عَهْـديْ فــإنِّيْ لَـمْ أخُنْـهُ وإنْ ضَــيَّعْتَ وَدِّيْ فـــإنِّي لا أُضـــيِّعُهُ
هـــذا مَقـــامُ ذليـــلٍ عَـــزَّ ناصـــرُهُ يشــكُوُ إليــكَ فهــلْ شــكْواه يَنْفَعُــهُ[2]

أما ابن المستوفي الإربلي فقد أضحى يرسل شكواه مما تلاقيه نفسه من أسى، لبعد أحبابه، إذ يقول: (البسيط)

يـــا مَـــنْ تغيَّـــرتْ الـــدنيا لبعـــدهم فكـــل رحـــبٍ فســـيح ضـــيق حـــرج
اســـتودعُ الله عيشـــاً مـــرَّ لـــي بكـــم يرتـــاح قلبـــي لـــذكراه ويبـــتهج
مـــا راقنـــي بعـــدكم شـــيءٌ مـــررتُ بـــه فكـــلّ مُستحســـن فـــي نـــاظري ســـمج[3]

وقد يلجأ الشاعر إلى الحوار ونداء الحبيب بأسلوب لا يخلو من التوسل، حين يطلب من محبوبه أن يتعطف عليه، ويرق لحاله، وقد تتراجع تفاصيل التحاور حتى تغدو مجرد مدخل إلى التجربة الشعرية، فيغلب عليها الاختصار، ولاسيما في المقاطع التي تنبثق عن رغبة الشاعر في إخضاع تجربته لمنطق التفريغ العاطفي، ليؤدي ذلك الحوار أو الخطاب مهمته من خلال طبيعة التوجه النفسي الذي يقرره امتداد المعاناة الآنية كقول ابن الظهير الإربلي: (السريع)

---

(١) ديوانه، ص٢٧.
(٢) قلائد الجمان، مج١، ج١، ص١٦١، وينظر: ديوان التلعفري ٤، ٦، ٢٩.
(٣) الحوادث الجامعة، ١٣٥، والمقطوعة غير موجودة في ديوانه المنشور في مجلة الذخائر.

يـــا راقـــدَ الجَفْـــنِ أَمَـــا رحَمْـــةٌ منـــكَ لِصَـــبٍّ جَفنـــهُ سَـــاهِرُ
يـــا كـــاملاً فـــي حُسْـــنِه صِـــلْ أَخـــا شـــوْقٍ مَديـــدٍ حُزْنُـــهُ وَافِـــرُ[1]

وقد يلتمس الشعراء في هذا الأسلوب عُذوبة حين يشكون وصال الحبيب معلنين في الوقت نفسه شدة وفائهم وبقائهم على العهد على الرغم من ظلم الحبيب وهجره[2]، في مقطعاتٍ لا تخرج عن هذا المجرى، وإن خالفته في نمط المعالجة، أو في بعض التفاصيل.

الطيف:

وقد يرسم الشاعر صوراً عديدة لطيف حبيبته، مترجياً زيارتها حيناً ومتعجباً حيناً آخر، إذ (تعجب الشعراء كثيراً من زيارة الطيف على بعد الدار، وشحط المزار، ووعرة الطرق، واشتباه السبل واهتدائه إلى المضاجع من غير هادٍ يرشده، وعاضدٍ يعضده، وكيف قطع بعيد المسافة بلا حافر ولا خف، في أقرب مدة وأسرع زمان)[3].

ويلجأ الشاعر لهذا الأسلوب حين يشتد تأزمه النفسي، وتضيق الحياة به، لتعذُّر سبل اللقاء، فيطرق عالم الأحلام والخيال بحثاً عن متنفس قد يريح نفسه المغتربة الهائمة، حين تجد بعض ما يؤنسها ويسلِّيها في الطيف، ليشم فيه رائحة الحبيب، ويشكو له حاله، لأنه وجد فيه ما يجسد ملامح ذلك الاغتراب الذي تلوَّنت به نفسه، ذلك أنَّ الطيف صورة رسمها خيال الشاعر لحظة ضياع أمل اللقاء للإحساس بالرضا أو السعادة، بعدما تواشجت بداخله الانفعالات بفعل الاغتراب العاطفي المتولد نتيجة إحساسه العاطفي وشدة شوقه إلى الحبيب الغائب.

لذلك نجد التلعفري يتودد الطيف لزيارته التي يجد فيها لذة وتخفيفاً لبعض بلاياه، إذ يقول: (الوافر)

بـــودِّي لـــو أتـــاني منـــك طيـــفٌ يخفـــف مـــا أُكابـــد مـــن بلايـــا[4]

(١) ديوانه ص١٤٤، وينظر: ص٣٤.
(٢) ينظر: مثلاً: ديوان الحاجري ص١٣٩، ٤١٦، ديوان النشّابي ٢٢١، شعر الجزري، ص٧٤، قلائد الجمان، مج١، ج١، ص٣٨٥.
(٣) رسالة الطيف، بهاء الدين الإربلي، ص٣.
(٤) ديوانه، ص٥٢.

وقد يدفعه شدَّة انفعاله النفسي، تحت وطأة ألم الفراق ولوعة الوحدة إلى استدعاء الطيف في محاولة لنسيان أو تجاوز ذلك الواقع النفسي المتأزم، علَّه يجد فيه بعض ما تمناه من وصال الحبيب(١).

وقد يشعر الشاعر باغترابه ووحدته مع وحشة الليل وظلمته وهدوئه الذي يثير في نفس الشاعر تلك الأوجاع التي يعلو أنينها ليلاً فيزداد شوقه للحبيب الغائب، فيحاور خياله الذي رسمه داعياً إياه لزيارته ليجد فيه ما يواسي به نفسه، التي تجد في ذلك الطيف ما يطفئ بعض نيرانها، ويخفف من أنين ألمها، إذ يقول: (الكامل)

بشـــقيق وجنتـــكَ الجنـــي وآســـها عـــالج لـــواعج عاشـــقيك وآســـها
واســـمح بإرســـال الخيـــال لمقلـــةٍ أهـــدت إلـــى جفنيـــك كـــل نعاســـها(٢)

ولكن يتصارع بداخله ذلك الأمل بزيارة الطيف وإدراكه استحالة تلك الزيارة لعاشق أتعبه السهر، فيقول: (الوافر)

أيطـــرقُ فـــي الـــدُّجَا مـــنكم خيـــالٌ وطرفـــي ســـاهرٌ هـــذا مُحـــال(٣)

لذلك نجد أبا الفتح الموصلي (-٦٣٠هـ) يعلل قلبه ليلاً بزيارة طيف الحبيب، أملاً في أن يطفئ نار شوقه المتأججة، وإن كان خيالاً، لكنه يجد فيه نشوة متخيلة، قد تنقله مؤقتاً ليعيش في عالمٍ تمنى يوماً إدراكه، إذ يقول:

(المتقارب)

(٣) ينظر: م. ن، ص٣٥، ١٩.
(٢) ديوانه ص١٨.
(٣) م.ن، ص٣٥، وينظر: ص٤٠.

متـــى يَسْـــمَحُ الـــدَّهْرُ لـــيْ بالوصـــال ... وَنُرجِـــعُ لـــذَّات نكْـــدِ الليـــالي
حَـــدَا بالأحبَّـــة حَـــادَيْ الفـــرَاقِ ... وشَـــطَ المـــزَارُ فكيـــفَ احتيـــالي
إذا جـــنَّ ليْلَـــيْ بـــذِكْرِ اسْـــمِهِ ... أُعلِّـــلُ قلبـــيْ بطيـــفِ الخيـــالِ[1]

ويلتمس الشاعر بذلك الخيال والوهم ما يسلِّي نفسه، متخيلاً وصال حبيبته التي زارته، في صورة تعكس دوام صلة الحب بينهما، إذ أنَّ الطيف (لقاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما، ولا يخش منعهما، والاطلاع عليهما، والتهمة بهما زائلة، والريبة عنهما عادلة، وأنه تمتع وتلذذ لا يتعلق بها تحريم، ولا يدنو إليهم تأثيم، ولا عيب فيهما ولا عار، وقد قاما مقاماً فيه ذلك أجمع)[2].

لذلك نجد الشعراء يرحبون ويهللون بزيارة الطيف عسى أن يجدوا في زيارته ما يبدد لوعتهم، كقول الشاعر النَّشَّابي:

(الكامل)

أهـــلاً بطيفِـــكَ، لـــو عرفـــتُ منامـــاً ... ولـــو أنَّ أحلامـــاً، فمـــا أَحلامـــا
ولـــو أنَّـــهُ أهـــدى الرُّقـــادَ، وَزارنـــي ... لـــم يلـــقَ إلا لوعـــةً وســـقاما
طرفـــي الـــذي اجتلـــبَ الضَّـــنى بمطـــامعٍ ... جَـــذَبتْ إلـــى أيـــدي الخُضـــوعِ زمامـــا[3]

وعلى الرغم من إدراك الشاعر من أنَّ الطيف ما هو إلاَّ خيال زائر وَوَهْمٌ كاذب، إلاَّ أنَّه يتوق لزيارته ملتمساً منه ما يعلل روحه، وواجداً فيه شفاءً للوعته[4].

وقد ينشد الشعراء زيارة ذلك الطيف إذ يعدونه نشاطاً إنسانياً ونفسياً للوجدان بحيويته وروحه المفعمة بنعمة اللقاء مع الحبيب الغائب المنشود[5] مما جعله يتألق في نفوسهم، إلاَّ

(١) قلائد الجمان، مج٣، ج٤، ص٢١٥، وهو عثمان بن نصر بن أبي النجم بن أبي الفتح الموصلي ولد سنة (٥٥٣هـ) ، كان تاجراً فكفَّ بصره، وترك التجارة ولزم بيته، وكان له طبع في النظم، توفي سنة (٦٣٠هـ) ، ينظر: م. ن، ص٢١٥.
(٢) طيف الخيال، الشريف المرتضى، ص٥-٦.
(٣) ديوانه (رسالة) ص١٩٨.
(٤) ينظر: ديوان الحاجري (رسالة) ص١٥٥، قلائد الجمان، مج٤، ج٥، ص٣٦٥.
(٥) ينظر: الملاح الرمزية في الغزل إلى نهاية العصر الأموي، حسن جبار، (أطروحة دكتوراه) ص٣١٦.

أنَّهم يدركون وفي لحظات الهدوء النفسي أنَّ ذلك الطيف وَهْمٌ وخيال، لكنهم يلجأون إليه في محاولة لتفريغ هموم النفس، ويعكس ذلك قول الحاجري:

(الكامل)

مـــا كُنْـــتُ أَقنـــعُ بالتواصُـــلِ مِـــنهمُ واليـــومُ أَقنـــعُ بالخيـــالِ الزَّائـــرِ[1]

إذ نلمس مشاعر الحزن والاغتراب و هي تتجول في نفس الشاعر، و هو يصف ما وصل به الحال من هجر الحبيب.

شجو الحمائم:

ومن مظاهر الطبيعة التي تثير الشجن في نفوس الشعراء شجو الحمام لما فيه من نغمة حزينة تدغدغ مشاعر الحزن، إذ نجد عواطف الشعراء تتأثر بذلك الصوت الذي يثير الشجون، ويبعث الأحزان، ويهز حنينهم وأشواقهم فيتبادلون الحديث معها، مواسين أنفسهم. حين يخلعون عليها من مشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم النفسية ما يجعلها تبادلهم الأفراح والأحزان، لكن الحاجري يرى أنَّ شجوه يفوق شجو الحمائم حزناً وألماً، إذ يقول:

(الخفيف)

لِحمـــامِ الأراكِ شَـــجْوُه، ولكـــنْ أيـــن شَـــجوي والطَّـــائرُ الغرِّيـــد
علِّلـــوني ولـــو بلمـــعِ ســـرابٍ يتســـلَّى بـــه فُـــؤادي العميـــدُ[2]

ولشجو الحمام أثر بالغ في أذكاء ما أخفاه ابن الظهير الإربلي من وجد وهيام، إذ نـراه يسـأل نفسـه كلمـا سـال دمعـه، أهاجـه بـرقٌ أم شـجو الحمـائم فيقـول: (الطويل)

(٥) ديوانه (رسالة) ص٢٢١.
(٢) ديوانه (رسالة) ، ص١٧٨،

أَهاجَــك بــرْقُ أَمْ شــجَتْكَ حمــائِمُ   فأبــدى لســانُ الــدَّمعِ مــا أَنــا كــاتِمُ
وَنَاحَــتْ علــى الأَوراقِ وُرْقٌ فأفصــحتْ   وباحــتْ بسِــرِّ الوَجْــدِ وَهْــي أَعَــاجِمُ
ومــا زفــراتُ الحُــبِّ إلا ضــرِيمةٌ   مــن النــار تــذْكيها الريــاحُ النَّواسِــمُ[1]

وللهديل الحزين صدى في نفس ابن دانيال يثير شجونها، حين يتغنى الحمام فَتُثار هواجس الغرام والشوق، فيبكي لكل هديل يسمعه، إذ يقول: (المجتث)

إذا تغنَّــــــى الحمــــــامُ   أبكـــــى المشـــــوقَ الغـــــرامُ
وحــــنَّ والشــــوق أَنــــىّ   غنــــى الحَمــــامُ حِمــــامُ
يــــا نــــازحَ الــــدَّار لكــــن   لــــه الفــــؤادُ مقــــامُ
حَلَلْــــتَ هجــــري فوصــــلي   لأَيِّ شــــيء حــــرامُ[2]

وقد يشبِّه الشاعر أَنينه لفقد الأَحبة بنوح ورقاء بكت لفقد إلفها، وقد يطرب لذلك الشدو الذي يثير أشواقه، كقول الحاجري: (الطويل)

ويُطربنــــي وُرْقُ الحَمــــامُ إذا شــــدا   ألا كُــلُّ مُشــتاق الفــؤادِ طــروبُ[3]

ونجد التلعفري الذي يطرب لذلك الشجو حين كان فؤاده خالياً، أصبح نوح الحمام يُسقيه الحِماما، بعدما ذاق العشق والهجر[4].

الشكوى:

وعندما يجد الشاعر نفسه تحت وطأة الاستسلام الهادئ لانفعالاته وإحساسه المرّ بفراق الحبيب، وما أَفضى إليه من اغتراب جعله يشعر بوحدته، نلمس أثر العامل الإنساني الذي يكمن في طبيعة التوجه الآني الذي فرض على الشاعر أن يهيء أرضية صالحة للخوض في تفاصيل التجربة التي تقتضيها وسيلة المعالجة التي أتكأ عليها لخوض حديث

---

(٢) ديوانه ص٢٢٤، وينظر: ص١٨٥، الورق: جمع ورقاء وهي الحمام، الضريمة: النيران، يذكيها: يزيد في اشتعالها.
(٢) المختار ٥٣-٥٤، الحِمام بالكسر: المنية.
(٣) ديوانه (رسالة) ص١٣٨.
(٤) ينظر: ديوانه ص٢١، ٣٥، وينظر: قلائد الجمان، مج٥، ج٦، ص٥٨-٥٩، الحوادث الجامعة، ص٦٣.

التجربة، إذ نجد أنَّ غرض الشكوى وجد هوى في نفوس الشعراء، حتى لا يكاد ديوان شاعر يخلو من مقاطع قد تطول أو تقصر في وصف معاناته من هجر الحبيب وبعد وصاله، في صورة ظلت تمتلك بذاتها قدرة الفعل والانفعال، فكان لها أن تضع الشاعر أمام تجربة أكثر إجهاداً، ولكنها أقدر على توفير عناصر الإيحاء المطلوب(١)، وقد تمثل ذلك في بث شكواهم لما يلاقونه من ألم الفراق إذ (لابد لكل مُحبّ صادق المودة، ممنوع الوصل، أما ببين وأما بهجر، وأما بكتمان واقع المعنى، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول)(٢)، لذلك ما فتئ، الشعراء يصورون خلجات النفس، ويصفون مشاعرهم المرهفة، ويشتكون ويتألمون مما أصابهم من يأس وتأسٍّ، وإحساس بالمعاناة كانعكاس لأثر الاغتراب في نفوسهم، ذلك أنَّ الغزل لا يخلو في بعض تفاصيله من نفثات الاغتراب لما فيه من (الاستبطان النفسي قدر ما كان فيه من فن الأداء والتعبير، وكان فيه من ترصد المشاعر الذاتية ما يؤكد أنَّ الشاعر لم يكن فكرياً ولا بسيطاً)(٣).

لذلك ما أنفك الشعراء يشكون صد الحبيب وجفائه في قربه وبعده، كقول التلعفري:

(الطويل)

وهَلْ لي إلى الشَّكوى سبيل لأشتكي ... فَلا الرسلُ تُشفيني إليك ولا الكتبُ
بجهلٍ أظنُّ القربَ لي منكَ نافعاً ... وسيانَ في وجدي لك البعدُ والقربُ
ففي ذا وفي هذاكَ قلبي مولَه ... كئيبٌ وجفني لا يقل له صبُ(٤)

وشكا الحاجري هجر الحبيب وقسوته وصده، ولواعج الشوق التي أرَّقته، فحملت كلماته نجواه الحزينة، حين أضحى يشكو أساه لمن أَحبه لكنه يُجيب نفسه بأسى آخر تمثل في عدم سماع الحبيب لشكواه، إذ يقول: (الطويل)

(١) ينظر: دراسات نقدية في الأدب العربي ص٣١.
(٢) طوق الحمامة ص١٩٦.
(٣) آثار التجربة الحياتية في الإبداع الأدبي، عبد الكريم غلاب (بحث) ، م. الأكاديمية ص١٠٤-١٠٥.
(٤) ديوانه ص٧.

أتـــأذنُ أنْ أشْـــكُو إليـــك ولـــوُعي ونـــارَ أســـى أجَّجْـــتَ بـــين ضُـــلُوعي؟
ومـــا أنـــا بالشَّـــاكي إلـــى غَيْـــرك الهـــوى وإنْ كانـــت الشَّـــكوى لِغَيْـــرِ سَـــميع
سَـــقى اللهُ جيرانـــاً علـــى الخيْـــفِ طالمـــا ســـقيتُ الثَّـــرى مِـــنْ بَعْـــدهِم بـــدِمُوعي[1]

ثم يصرخ شاكياً من هجر الحبيب وجفاه محملاً شكواه همسات التوسل والترجي لأن يكرم الحبيب حاله، بعد أن نفد صبره، ورقَّ له قلب كلَّ شامت، إذ يقول: (الطويل)

هُـمُ حَمَّلـوُني فـي الهـوى فَـوْقَ طَـاقتي فَمِـــنْ أَجَلِهـــمْ قامَـــتْ علـــيَّ قيـــامتي
بِحَقِّكُـــمُ يـــا جـــائِرين تعَطَّفُـــوا فَقَـدْ رَقَّ لـي مـن هَجْـرِكُمْ كَـلُّ شـامتِ
سـأَلتُ فـؤادي الصَّـبْرَ عـنكم، فقـال لـي: إليـك فـإنَّ الصَّـبْرَ مِـنْ غيـر عـادتي[2]

واشتكى القاسم بن القاسم الواسطي (-٦٢٦هـ) بأسلوب رقيق ينم عن عذابات الروح، إذ حاول فيه استمالة الحبيب واستعطافه، طمعاً في أن يرق لحاله، حين أعلن أنَّ دموعه هي لسان شكواه، ليكشف عن رقةٍ في طبعه لا تطيق هجر الحبيب، فيقول: (الطويل)

وقَفْنَـا علـى حُكْـمِ الهَـوى نُعْلِـنُ الشَّـكْوَى بألفـاظ دَمْـعٍ تَفْضَـحُ السِّـرَّ والنَّجـوى
وكانَـتْ لَنـا دَعْـوى مِـنَ الصَّـبْرِ قَبْلَهـا ولكِـنْ دُمُـوْعُ العَـيْنِ أبطَلَـتِ الـدَّعْوَى
وقَـدْ كُنْـتُ قَبْـلَ البَـيْنِ جَلْـداً تَهُزُنِـي تَبـاريْحُ شَـوْقٍ سِـرُّها فـي الحَشَـا يُطـوى
وَأحْمِـلُ ثقـلَ الوَجْـدِ والرَّبـعُ آهِـلٌ ولكـن إذا مـا الرَّبـعُ أقـوى فَـلا أَقـوى[3]

وحين اكتوى قلب ابن زيلاق الموصلي، وتحرَّق بنار الهجر، أضحى يتوسل الحبيب ويترجاه طمعاً في سؤاله، إذ يقول: (البسيط)

---

(١) ديوانه (رسالة) ص٢٥٥.
(٢) م. ن، ص١٦٣، وينظر: ص٣٢٥، ٣٩٣، ٣٩٧، إذ كرر شكواه من هجر الحبيب.
(٣) قلائد الجمان مج٤، ج٥، ص٣٤٦، وهو القاسم بن القاسم بن عمر بن منصور أبو محمد الواسطي، ولد سنة (٥٥٠ هـ) بواسط، كان أديباً نحوياً لغوياً فاضلاً، له تصانيف في الأدب والنحو، توفي سنة (٦٢٦هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٤٢-٣٤٣، فوات الوفيات ٢/٢٥٨-٢٦٠.

سَـلْ عـن فـؤادٍ بنـار الهجـر تحرقـه ونـــــاظرٍ بتجنيـــــه تؤرقـــــه
ولا تـــرج ســـلواً مـــن غـــريم هـــوى موكـــل بجديـــد الصـــبر يخلقـــه[1]

وحين يأس من عطف المحبوب شكا إلى الله تعالى غدره وجوره وصده، قائلاً: (الطويل)

إلـــى الله أَشْـــكُو هَـــاجرِي ومُعَنفِـــي عليـــه فكـــلُّ جـــائر فـــي احتكامـــه
حبيـــبٌ نـــأى عنـــي الكَـــرى بملالـــه وواش دنـــــامني الأســـــى بملامـــــه
غريـــبُ المعَـــاني قـــامَ عُـــذْرَ صَـــبابتي بحســـن عذاريـــه ولـــين قوامـــه[2]

وشابهه ابن دانيال حين التهب صدره بنار هجر الحبيب وصده إذ ما فتِئ يشكو الخلاص، مخاطباً إياه، قائلاً: (الطويل)

فَمَـنْ مُنقـذي مـن نـارِ صَـدِّكَ والهـوى يُضَـــرِّمُها بـــين الضُّـــلوع تلَهُّبَـــا[3]

وحين يأس صفو الحبيب راح يشكوه إلى الله سبحانه بدموع تخبرُ قلةَ حيلته وصبره، إذ يقول:
(الطويل)

إلـــى الله أَشْـــكُو قلـــبَ مـــن لا يُريـــدني علـــى مقتَضـــى حظِّـــي وقَلبـــي يُريـــدها
ولا ذنـــــب لـــــي إلاَّ تلـــــثمُ لوعـــــةٍ أبـــى الصَّـــبْرُ أنْ تبـــدو وَدمعـــي يعيـــدها[4]

وصوَّر ابن الظهير الإربلي نحوله وسقمه من ألم المحب، حين جعل قلبه وطرفه وسيلة تُعبِّر عن ألمه وشكواه، إذ يقول:
(الكامل)

---

(١) ديوانه ص٢، يخلقه: الخلق: البالي.
(٢) م. ن، ص١٣٩.
(٤) المختار ص٦٦.
(٤) المختار، ص٥٥-٥٦.

قَلْبـــي وَطَرْفِـــي ذا يَســـيلُ دمـــاً وذا دونَ الـــوَرَى أنـــتَ العلـــيمُ بقَرْحـــهِ
وهمـــا بِحُبِّـــكَ شـــاهدانِ وإنَّمـــا تعْـــديلُ كُـــلٍّ منهمـــا فـــي جُرْحِـــهِ(١)

وقد يعيا الشاعر حين لا يجد سبيلاً للبوح بهواجسه، فيعمد إلى إسقاطها على العاذل، أو رمزه الذي يمثل الصوت المرفوض ليمنح نفسه فرصة الرد مستنداً إلى عمق شعوره، وقوة تعلقه بالمعشوق، إذ ينقل أحياناً حواره النفسي إلى حوار مع العاذل أو مع المعشوق، وما ذلك إلاَّ إسقاطات نفسية لما يُعانيه من اغتراب داخلي نتيجةً لإحباطه المتكرر أو فشله في لقاء الحبيب.

لذلك فقد شكَّلَ العاذل واللائم والرقيب هواجس الشاعر التي يتحسس منها، إذ عمد الشعراء إلى ذكرهم محاورين إياهم، كقول الحاجري:

(البسيط)

يـا عـاذِلي أَيْـنَ سَـمْعي مِنـكَ والعَـذَلُ؟ أَسْـلوهُ؟ كـلاَّ وطَـرْفٍ زانَـه الكَحَـلُ
إنْ هِمْـتُ وَجْـداً فمـا قلبـي بـأوَّل مَـنْ أَودَتْ بـه الوَجَنـاتُ والحُمْـرُ والمُقَـلُ(٢)

فالعاذل يجهل عذاب الشاعر، وشدة انفعالاته النفسية كونه لم يذق العشق، لذلك تمنى الحاجري أن يرحل عنه تاركاً إياه يتذوق حلاوة عشقه ومرارته، إذ يقول:

(الكامل)

يـا عـاذِلي فـيمَنْ أُحِـبُّ جهالـةً عَنِّـي فلـيس شـأنُكَ شـاني
كَـمْ بَـيْنَ مـلآنِ الضُّـلوعِ صـبَابةً؟ وخَلِـيٍّ بـالٍ مُطْلَـقِ الأَرْسـانِ
بَـيْنَ المـلامِ وبَـيْنَ سَـمْعي مِثْـلُ مـا بَيْنـي وبَـيْنَ الصَّـبْرِ والسُّـلْوانِ(٣)

الواشي:

(١) ديوانه ص١٠٧، وينظر: ص٥٠-٥٥، ديوان التلعفري ص٣٦، قلائد الجمان مج٤، ج٥، ص٢٨٩، ٣٧٤.
(٣) ديوانه (رسالة) ص٢٩٨.
(٣) ديوانه، ص٢٤٢.

وقد يجد الشاعر في الواشي متنفساً يُعبِّر فيه عن لواعج نفسه من ألم الفراق، حتى يسقط تلك الهواجس النفسية التي تواشجت بداخله حين فَقدَ الأحباب، ويجد فيه ملجأ يلوذ به إلى استعطاف الحبيب ليعلن شدة غرامه ووفائه، كقول أبي حامد الكاتب الإربلي:

(الوافر)

مُحِبٌّ ليس يَثْنيه المَلامُ ... وقَلْبٌ بات يُغريه الغَرامُ
ودَمْعٌ فوقَ خدٍّ ليسَ يَرْقا ... وجَفْنٌ ذُوسُهاد لا ينامُ
فبين الجَفْنِ والنَّومِ افتراقٌ ... وبينَ الدَّمْعِ والخَدِّ التئامُ
بِنَفْسي صارمٌ للوِدِّ طَبْعاً ... وَوُدِّي مالهُ الدَّهْرَ أنصرامُ
غَرَيرٌ بتُ أُعذَلُ فيه ظَلْماً ... وبينَ جَوانحي منه أضطرامُ
أُلامُ على هواهُ وليسَ يدْري ... بأني في هواهُ لهُ أُلامُ
أَرومُ وصاله في الدَّهْرِ يوماً ... ودونَ وصاله الموتُ الزُّؤامُ[1]

الفراق والوداع:

وتعدُّ الرحلة أرضية خصبة لنمو الاغتراب، لأَنها تعني الانفصال عن الذات أو عن الآخر، إذ يبقى الوداع هاجساً نفسياً يلاحق الإنسان وينذره بعدم الاستقرار، مما يُشعره بالوحشة والاغتراب حين تتواشج الأحاسيس المختلفة مُخلّفة ذلك الإحساس المؤلم، إذ استطاع شعراء هذا القرن أن يعبِّروا عن لوعتهم وما يعتريهم من ألم سببه الفراق والوداع، فصوروا الفراق بكل مفرداته من رحيل الأحبة ويوم الوداع، وما يدور فيه وما يولده من شوق وحنين ودموع تذرف في ديار الأحبة ومُستذكرين تلك الأيام التي قضت برفقتهم، ففي لحظات الرحيل والوادع قد تتمزق النفس بفعل الإحساس بالوحشة الذي قد يدفع الإنسان إلى الشعور بالاغتراب والوحدة، فابن الحلاوي الموصلي قد شفَّه الوجد والحبيب بقربه، فكيف به إن عزمَ الرحيل، إذ يقول:

(الكامل)

(٢) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص٣٠٣، وتكررت المعاني نفسها عند بعض الشعراء، ينظر: ديوان ابن زيلاق ص١٣٠، ديوان شمس الدين الكوفي ص٦٣، ٧٠-٧١، ديوان الحاجري، ٢١٣، قلائد الجمان مج٢، ج٣، ص٣١١، مج ٤، ج٥، ص٢٦٤.

لـو كـان يَشْـفي القُـربُ مِنـكِ غلـيلاً ... مـا بـات جسـمي فـي هـواكِ نَحـيلا
وإذا هجـرتِ علـى الـدُّنوِّ فمـا الَّـذي ... آسـى عليـه، إذا عزمـتِ رحـيلا
يـا ربَّـة الطّـرفِ الكحيـل: تركتنـي ... قلقـاً، وطَرْفـي بالسُّـهاد كحـيلا
فكمـا جَعلـتِ الصَّـدَّ منـك كُثيِّـرا ... هـلاَّ جَعَلـتِ الصَّـبْرَ عنـك جَمـيلا(١)

ويرسم الحاجري مشهداً يصوِّر فيه اغترابه وذهوله، و هو يتلفت يميناً و شمالاً في فسحة الدار، يسأل نفسه، ويسأل بقايا الدار عن الأحباب، ليعلم أَنَّهم رحلوا، وذلك المشهد يعكس حيرة الشاعر واغترابه، وشعوره بالوحدة والضياع حين غدت دموعه تنسكب بمرارة ويبكيهم بتفجع، إذ يقول:

(الكامل)

لمَّـا وقَفْـتُ علـى عِـراصِ المَرْبَـعِ ... أَبْكـي وأَسـألُ عَـنْهُمُ بِتَفَجُّـعِ
نـادَتْ حُمَيمَتُـهُ بِقَلْـبٍ مُوْجَـعِ ... رَحَلُـوا عـن الأَوْطـانِ بَعْـدَ تَجمُّـعِ

والفراق يُثير الشجون في النفس ويعتصر القلب والروح فيغدو الإنسان عاجزاً، هائم النفس، حائراً لا يهدأ له قرار، يجافيه النوم، ويعتصر قلبه الألم، ولاسيما حين يستذكر طيب الأيام، كقول الحاجري:

(الطويل)

أَأَحبابنـا بِنْـتُمْ علـى الخَيْـفِ فاشـتكَتْ ... لِبُعـدِكُمُ اصـالُها وضُـحاها
وفَـارَقْتُمُ الـدَّارَ الأَنيسـة فاسْـتَوتْ ... رُسُـومُ مغانيهـا وقـاعُ فَلاهـا
كـأَنَّكُمُ يُـوْمَ الرَّحيـلِ رحَلْـتُمُ ... بِنَـوْمي فَعَيْنـي لا تُصـيبُ كَراهـا

رعَـى اللهُ لَـيْلاتٍ بطيـبِ حـدَيثِكُمْ ... تَقَضَّـتْ وَحَيَّاهـا الحَيـا وسَـقاها(٢)

أما عبد السلام التكريتي فقد شكا الأسقام التي أنبتتها بجسمه فرقة الحبيب، إذ يقول:

(١) ابن الحلاوي الموصلي حياته وشعره (بحث) ص٤١، كثير وجميل شاعرا غزل في العصر الأموي، شُهِرَ الأول بعزة توفي سنة (١٠٥هـ) ، والثاني ببثينة توفي سنة (٨٢هـ) .
(٢) ديوانه (رسالة) ص٣٨٨.
(٣) م. ن، ص٣٥٩.

(البسيط)

يـــا غائبـــاً أثَـــرت فـــي القلـــب غَيْبَتَـــهُ وأنبتَـــتْ عنـــديَ الأســـقامَ غُربتُـــه
مَـــنْ داؤهُ البَـــيْنُ قـــد عَـــزَّتْ أَطبَّتـــه فـــلا تَلُـــمْ مَـــنْ نـــأَتْ عنـــه أحبَّتُـــه

وغالبته يدُ الأسقامِ واللَّهَفُ[1]

وقد تضطرب نفس الشاعر لفراق أحبته، فيغدو هائماً تائهاً شريد الذهن، لا يعرف الاستقرار، اعتصره الحزن، فبات يئنُّ ألماً، كقول أبي اليمن تاج الدين البغدادي:

(الخفيف)

أَيُّهـــا الغائـــبُ الـــذي حضـــر الشـــو قُ إليـــــه وواصـــــل التفريـــــقُ
أنـــا ســـكرانُ مـــن فراقـــكَ حزنـــاً لســـــتُ إلاَّ إذا قـــــدمتَ أَفيـــــقُ[2]

وقد مثلت صورة الظعن هاجساً نفسياً أرَّق الشاعر، و هو يشهد رحيل الأحباب أمام عجزه، حين لم تجد صيحاته وهمومه وزفرات قلبه صدى لها، إذ يقول أبو الفيض الدوري:

(١) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص٣٧٧.
(٢) ديوانه ص٦٥.

(البسيط)

زادَ الغـــرامَ بقَلْـــب المُـــدْنَفِ القَلِـــقِ ولاَزَمَتْنـــي هُمُـــومُ الشَّـــوْقِ والأرَقِ
لمَّـا سَـرَى الرَّكـبُ بالأظْعَـان مِـنْ إضَـمٍ وَغُـوْدِرَ القَلْـبُ مَمْلُـوءً مـن الحُـرَقِ
نَادَيْـتُ حَـادِيَهُمْ رِفْقـاً بِمَـنْ سَـلَبُوا منْـهُ الرُّقـادَ ولَـمْ يُبْقُـوا علـى رَمـقِ[1]

وقد يستلهم الشاعر صورة الليل ليجسد من خلالها اغترابه في زحمة قلقه، وتوجسه، ووحشته، ذلك أنَّ الليل يمثل عند الشعراء الغزليين رمز الوحدة والسكون واسترجاع الذكريات[2] إذ يقول ابن زيلاق الموصلي:

(الخفيف)

لـو رعـى مَـنْ أُحِبُّـه حـيْنَ سَـارا مُهجـاً فـي يـدِ الغَـرامِ أسـارى
أَيُّهـا السـائق الرَّكائـب يَحْملـن الشّـمُوسَ الحسـانَ والأقمـارا
قِـفْ قلـيلاً فقـد نفضـتَ مِـن المقـ ـلةِ نـوراً أو زدتَ فـي القلـب نـارا
رَحَلُـوا فالنهـارُ ليـلٌ وقـد أعـ ـهد ليلـي بـالقربِ مـنهم نهـارا
لا تسـمني صَـبْراً فقـد حَكَـمَ البيـ ـنُ بـأَني لا أملـكُ ألا الاصـطبارا[3]

وربما وجد الشعراء في وصف الفراق ولوعته متنفساً يفرغون فيه هواجسهم المتولدة من إفرازات الواقع المر، ليجدوا في وصف الفراق والرحيل صدى لأوجاعهم تلك، لذلك قلّما نجد شاعراً لم يصب همه في وصف الفراق والرحيل[4].

(١) قلائد الجمان، مج٨، ح١٠، ص٣٢٦، وهو يونس بن علي بن الحسن أبو الفيض بن أبي الحسن الدوري ولد سنة (٥٧١هـ) في تكريت، انحدر إلى بغداد ونزل بالمدرسة النظامية واشتغل بها وكتب الكثير من كتب الفقه واللغة، وتولىَّ الخطابة بجامعها، توفي سنة (٦١٦هـ) ، ينظر: م. ن، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٢) ينظر: غزل بشار العذري، حافظ المنصوري (بحث) مجلة دراسات نجفية، ص١٩٨.

(١) ديوانه ص١٠٣.

(٤) ينظر: ديوان التلعفري ص٤، ٢٣، ديوان ابن زيلاق ص١١٢، شعر الجزري، ص٨٢، قلائد الجمان، مـج٢، ج٣، ص٨٤-٨٥، مـج ٤، ج٥، ص٣٤٥، مـج٥، ج٦، ص١٢٠، مـج٦، ج٧، ص١٣٧، الـوافي بالوفيات، ٢٤٦/١، ٢٦٣/٥، فوات الوفيات ١٠٨/٤، عيون التواريخ ١٠٩/٢١.

ومن دواعي الشوق الأخرى ديار الأحبة فـ (إذا كانت الحبيبة هي المثير الطبيعي لعاطفة الحب فأنَّ الأطلال هي المثير المقارن أو الصناعي، وتفسير ذلك أنَّ الحبيبة بعيدة عن الشاعر، فديارها حلَّت محلها في إثارة عاطفة حبها، فحين ثارت هذه العاطفة أقبل المحب يقبل جدران دارها، فالديار وجدرانها هي المثير الصناعي، والذي سوَّغ ذلك أنَّ الحبيبة كانت تسكن الديار، فوجود هذه اقترن بوجود تلك ومرت على ذلك الأيام حتى صارت الحبيبة وديارها وحدة متماسكة، فإذا كان جزء قد رحل، فإن الجزء الآخر قد حل محله)[1].

لذلك نجد للمنازل ذكراً في أشعارهم وبصور متعددة، فديار الأحبة أماكن مقدسة، كانت سبباً في هيام الشاعر وتعلقه، بعد أن لمس فيها ذاته ووجوده ووطنه، فثارت هواجسه وأحزانه، كقول ابن الظهير الإربلي:

(الكامل)

حيثُ الأراكةُ والكثيبُ الأوعُسُ ... واد يهيمُ به الفؤادُ مُقدّسُ

وتكاد أنفاسُ النسيم إذا سرتْ ... من خيفةِ الغَيْران لا تتنفَّسُ

وبجَوِّ ذاك الشِّعْبِ أنفسُ مَطْلبٍ ... أَمستْ تذوبُ أسى عليه الأنْفُسُ

يا جيرةَ الحيِّ المُظَلَّلِ بالقَنا ... هل نارُكم بِسوى الأضالعِ تُقْبَسُ[2]

وقد نجد لإرهاصات التيار الصوفي أثراً في وقوف الشعراء، وذكرهم للديار الحجازية في رؤيا حملت منحاً قدسياً[3]، من خلال أشعار عربية الأجواء، بدوية المواضع، زُعم أنَّ الأحباب من سُكانها، حين يسترجع الشاعر ذكرياته على ترابها وأطلالها، فأين

(١) الغزل في العصر الجاهلي ص٣٠٠.

(١) ديوانه، ص١٥٢-١٥٣، الأراكة: واحدة الأراك، وهو شجر المسواك وهو نبات له ثمر أحمر يذبت في صحراء مصر، الكثيب: الرمل المستطيل المحدوب، الأوعس: السهل اللين من الرسل، الشِعْب/ مسيل الماء في بطن من الأرض، وينظر: ديوان الحاجري، ص٢٢٥، ديوان ابن دنيذير اللخمي، ص٦٧، ديوان التلعفري: ١٩٣.

(٣) الأدب في العصر الأيوبي، د. محمد زغلول سلام، ص٧٠.

أجواء العراق من حاجر والغوير والعقيق ومنى وتهامة ونجد وكاظمة وغيرها من المواقع الحجازية[١].

ويصاحب الفراق عادة أسى عميق يستدعي انسكاب الدموع تخفيفاً لحدة التوتر، وتعبيراً عن صدق شعور الشاعر، لذلك نجد أنَّ أغلب الشعراء انكبوا على وصف الدموع السجام صبابة وشوقاً من خلال توظيف ألفاظ الحزن والبكاء نحو (البعاد، الهجر، الجفاء، الصبر، الدموع) كقول الصاحب بهاء الدين الإربلي مصوراً حالته النفسية بعد فراق أحبته: (الخفيف)

مُغْـــرَمٌ شـــفَّهُ بعـــادٌ وهَجْـــرُ ... وجَفَـــاهُ حَبيبُـــهُ والصَّـــبْرُ
أَمْطَـــرتْ خَـــدَّهُ دُمـــوعٌ غـــزارٌ ... فَهْـــوَ منهـــا فـــي لُجَّـــةٍ مُسْـــتقِرُّ
هَمَّـــهُ والغَـــرامُ فيـــه فُنُـــونٌ ... نـــاظِرٌ فـــاتِنٌ وَريـــقٌ وثَغْـــرُ
وجُفُـــونٌ كَلـــونِ حَظِّـــي سُـــودٌ ... وخُـــدُودٌ كلـــونِ دَمْعِـــي حُمْـــرُ[٢]

وتتعاظم الشجون في نفس الحاجري حين رحل الأحبة فراح يُنفِّس عن وحدته واغترابه باستدعاء ذكريات الماضي الجميل، ليطلق صرخة داخل نفسه يدعوها لهمل سحائب من الدموع في ديار الأحباب وهذه الصرخة وتلك الوقفة المصحوبة بتلك السحائب تنم عن ذلك الإحساس المرهف، والشعور الحزين المتولد بفعل الهجر والفراق، إذ يقول: (الكامل)

قِـــفْ بالمنَـــازِلِ وَقْفَـــةَ المُشْـــتَاقِ ... اهْمِـــلْ سَـــحائِبَ دَمْعِـــكَ المُهْـــراقِ
فَهُنـــاكَ كـــانَ العَـــيْشُ حُلْـــوَ المَجْتَنـــى ... رَطْـــبَ المغـــارِسِ يـــانِعَ الأوراقِ[٣]

والإحساس عينه نلمسه مكرراً عند شجاع بن علي الموصلي (-٦٢٠ هـ) حين غلب الشوق صبره، فغدت دموعه تذرف سجاما، بعدما ذاقت نفسه ذاك الإحساس الأليم بالوحدة

(١) ينظر: المنشيء الإربلي (رسالة) ص٧٩، ديوان شمس الدين الكوفي، ص١٩-٢٠، وفيات الأعيان، ٩٠/٧.
(١) ديوان الصاحب بهاء الدين ص٩١، لجة: التج البحر، عظمة لجته وتموج.
(٣) ديوانه (رسالة) ص٢٩٣، وينظر: ص١٨٥.

والوحشة حين فارقه الأحبة، وراح يستغرب عيش المحب بعد فراق الحبيب، إذ يقول: (الطويل)

دُمُوعٌ جَرَتْ يومَ الفراقِ سجامُ ... وقلبٌ لنار الشَّوق فيه ضِرامُ
لحى اللهُ يوم البَيْنِ إنَّ مَذاقَهُ ... لكلِّ نُفُوسِ العاشِقين حِمامُ
وكلُّ مُحِبٍّ لم يَمُتْ يومَ فَرْقَةٍ ... فذاك له عند المنونِ ذِمامُ(١)

أَما بهاء الدين الإربلي فقد دفعه إحساسه بالوحدة والاغتراب إلى سلوك منحى آخر أكثر أثراً في النفس حينما وجد أَنَّ البكاء والوقوف في ديار الأحبة لا يشفي نفسه، فانكب على أرض الأَحباب يُقبلها، ويلثم التراب علَّه يجد في ذلك السلوك ما يواسي نفسه المجروحة، إذ يقول:

(الطويل)

أُقَبِّلُ تُرْبَ الأرضِ أَنتُمْ حُلوَلها ... فأَكسِبُ في ذُلي لأرضكُمُ فَخَرا
فَقَلْبِي ما أَصْبى إلى قُرْبِ دَارِكُمْ ... وَوَجْدي ما أَوْفَى ودَمْعِيَ ما أَجْرَى
أُسُكَّانَ قلبي قَدْ بَرانِي هَواكُمُ ... وغَادَرني إعراضُكُم والهاً مُغْرى
وفي كَلِّ حالٍ أنْتُم غايةَ المُنى ... قريبونَ من قَلْبي وإنْ بَعُدَ المسْرَى(٢)

ولنا بعد ذلك أن نتخيل هذا الواقع المؤلم للشاعر، وهو يُفرغ أو يُعبِّر عن عالمه الداخلي بطريقة غريبة يفتخر بذلِّها أو هذه الصورة، وذلك الشعور بالاغتراب الذي يكشف

---

(١) قلائد الجمان، مج٢، ج٣، ص١١٧، وهو شجاع بن علي بن إبراهيم أبو محمد الموصلي ولد سنة (٥٤٠هـ) ، كان صاحب فكاهة وحكايات ومعرفة بأخبار الناس، وله أشعار كثيرة، رحل إلى الشام وامتدح كلها، توفي في الموصل سنة (٦٢٠هـ) ، ينظر: م. ن، ١١٦-١١٧.

(١) ديوان الصاحب بهاء الدين ص٩٤، براني: يبريه برياً هزله، والها: ولهت المرآة على ولدها، اشتد حزنها حتى ذهب عقلها، مغرى: الغرا ما طلي به أو لصق به، ولم تخرج طبيعة المعالجة والتعامل مع هواجس الشاعر النفسية في الشواهد الشعرية الآخر، كما أشرنا إليه، وإن اختلفت طريقة العرض والتناول والتعبير، ينظر: ديوان التلعفري ص٢١، ٢٤، ٢٥، ٤٨، ديوان ابن المستوفي الإربلي ص١٦٨، ١٧٦، ١٧٧، ديوان ابن الظهير الإربلي ص١٦٣، ديوان النشابي، ص٢٢٥، ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٦٨، ديوان ابن زيلاق، ١١٠،= = ١١٨، قلائد الجمان، مج١، ج٢، ص٩٥-٩٦، ٣٧٩، مج٢، ج٣، ص٣٧٥، مج٣، ج٤، ص٢٦٤، مج٤، ج٥، ص٣٦٣، مج٥، ج٦، ص١١٨، \فوات الوفيات ١١٤/١-١١٧، ٣٨٤، ٣٨٨-٣٨٩، ٣٩٢، ٢/٥٨/٤١٣، ٣/٥٧-٥٨.

طبيعة التكوين النفسي والاجتماعي للشاعر، إذ بدا لتجربته الذاتية وقوة أثر ظرفه الشخصي، أثر في توجيه التعامل مع ذلك الإحساس، مما يمنح سلوكه هذا مسوِّغه النفسي.